الحركة الإسلامية
في مجال التربية والتكوين

- أهمية تكوين الطلائع المؤمنة .
- التربية الإيمانية هى الأساس .
- ضرورة التربية الفكرية لقيادات المستقبل .
- معالم الفكر المنشود لإعداد القادة .
- فكر علمى .
- فكر واقعى .
- فكر سَلَفى .
- فكر تجديدى .
- فكر وَسَطى .
- فكر مستقبلى .

OBEIKAN.COM

الحركة الإسلامية فى المجال التربوى

• التربية الإيمانية هى الأساس :

إن التربية هى المدخل الأساسى والضرورى لأى حركة إسلامية تعمل على تغيير الواقع بتغيير ما بالأنفس .

والذى أركِّز عليه هنا ، فى مجال العمل التربوى هو تكوين الطليعة المسلمة المرجوَّة لنُصرة الإسلام ، والتى تمثل فى عصرنا دور الصحابة فى عصر النبوَّة .

وأول مقوِّمات هذه الطليعة هو : الإيمان – وأعنى به إيمان القرآن والسُنَّة – أخلاقه وشُعَبه التى نيفت على السبعين ، وأُلِّفت فيه كتب مستقلة . فليس الإيمان إذن بالتمنى ولا بالتحلى ، ولكن ما وَقَرَ فى القلب وصَدَّقه العمل .

ليس المقصود بالإيمان هنا مجرد معرفة ذهنية لا تنفذ أشعتها إلى القلب فتضيئه ولا إلى الإرادة فتُحَرِّكها ، ولا مجرد حشو الذاكرة بعبارات ومصطلحات عن معانى : الرب والإله ، والدين والعبادة ، والتوحيد بأقسامه ، والطاغوت والجاهلية ، والامتلاء عُجباً وغروراً بأن هذا هو كل الإيمان ، ومحض اليقين ، وشغل الآخرين بمعارك جدلية حول هذه الألفاظ ، على أهميتها .

فإن هذا المراء أو الجدل لا ينشىء إيماناً كإيمان سَحَرة فرعون حين آمنوا برب هارون وموسى ، ولا كإيمان الصحابة حين صدَّقوا برسالة رسول الله ﷺ .

الإيمان المنشود هو الإيمان الأول ، كما جاء به القرآن والسُنَّة .

وحسبى هنا من القرآن آية واحدة ، ذكرها القرآن الكريم رداً على الأعراب الذين قالوا : آمنا ولمَّا يدخل الإيمان فى قلوبهم : وهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، أُوْلَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [١] .

---

(١) الحجرات : ١٥

ومن السُنَّة الحديث الذى رواه الشيخان عن أنس أن النبى ﷺ قال : « ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلاَّ للّه ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه اللّه منه ، كما يكره أن يُقْذَفَ فى النار » .

وقد يكفى بالنسبة للقاعدة الشعبية المؤيدة نصف الإيمان أو رُبعه ، ولكن بالنسبة للطليعة القائدة ، لا بد من الإيمان الحق،ولا يكفى أنصاف المؤمنين ولا أرباع المؤمنين .

كان الشهيد حسن البنا يقول لتلاميذه : إيتونى باثني عشر ألف مؤمن،وأنا أقتحم بهم الجبال ، وأخوض بهم لجج البحار ، وأفتح بهم الأقطار [١] .

ولكن هل مثل هذا العدد يكفى لتحقيق الأهداف الكبيرة والآمال العريضة للأمة الإسلامية ؟ أنا هنا أقول : نعم إنه يكفينا اثنا عشر ألفاً إذا كانوا من المؤمنين حقاً . كما أقول : إنه لا يغنى عنهم أربعة وعشرون ألف نصف مؤمن ، ولا ثمانية وأربعون ألف رُبع مؤمن ، ولا ستة وتسعون ألف ثُمن مؤمن ، ولا ملايين من « كسور » المؤمنين الذين قال فيهم الشاعر :

يزحمون الأرض من كثرتهم ثم لا يغنون فى أمر جلل !

إننا نريد مؤمنين يوصفون بما وُصِفَ به الأنصار - رضى اللّه عنهم - : يكثرون عند الفزع ، ويقلون عند الطمع !

---

(١) يبدو أنه - رحمه الله - أخذ هذا من الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن ابن عباس مرفوعاً : « ولا تُهزم اثنا عشر ألفاً من قلة » كما فى صحيح الجامع الصغير برقم (٣٢٧٨) .

OBEIKAN.COM

أما الذين وُصِفُوا فى حديث ثوبان بأنهم كثرة كغُثاء السيل [١] ، فلا يصلحون يوماً أن يكونوا الطليعة المرجوَّة ، وإن عُدّوا بالملايين .

إن التربية الإيمانية أو الربانية هى الشرط الأول لتخريج جيل ينتصر به الإسلام .

وهو الموصوف فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢] .

* * *

● لا بد من قدر من التربية الصوفية السليمة :

وهنا لا بد من قدر من التربية الصوفية السليمة المقوَّمة بميزان الكتاب والسُنَّة والتي تعمل على تكوين الشخصية الربانية التى تؤثر الخالق على الخلق ، والآخرة على الدنيا ، وباعث الدين على باعث الهوَى .

والتصوف ليس كله شراً ، كما يتصور بعض الناس ، والمتصوفة ليسوا كلهم ضُلالاً ، كما يدَّعى مَن ينقصهم العلم أو العدل . بل هم كغيرهم من الطوائف كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى رسالته عن « الفقراء » : ففيهم المستقيم والمنحرف ، وفيهم الظالم لنفسه ، والمقتصد ، والسابق بالخيرات بإذن اللّه .

ولا شك أننا نرفض أباطيل التصوف الفلسفى (القائل بالحلول والاتحاد) ،

---

(١) إشارة إلى الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق ، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، قيل : يا رسول اللّه ، فمن قلة يومئذ ؟ قال : لا ، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل ، يُجعل الوهن فى صدوركم ، ويُنزع الرعب من قلوب عدوكم ، لحبكم الدنيا ، وكراهيتكم الموت » صحيح الجامع الصغير (٨١٨٣) .

(٢) المائدة : ٥٤

وشطحات التصوف البدعى ، وانحرافات التصوف الأرتزاقى . ونريد لباب التصوف الذى كان عليه الزُهَّاد الأوائل ، كالحسن البصرى ، والفضيل بن عِياض ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبى سليمان الدارانى ، وأبى القاسم الجنيد ، وأمثالهم ..

إننا نريد التصوف السُنِّى الملتزم بالمنهج القرآنى النبوى المتوازن ، والذى يعنى بـ « تقوى القلوب » قبل « أعمال الجوارح » ، وبروح العمل قبل صورته . وفى الحديث الصحيح : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » (١) .

ويعنى بعلاج أمراض القلوب وسد مداخل الشيطان إليها ، وجهاد أهواء النفس ، حتى تتهذب أخلاقها ، وتتحلى بالفضائل ، وتتخلى عن الرذائل .

وقد لخص بعضهم التصوف بأنه : الصدق مع الحق ، والخُلُق مع الخَلْق ، وهو ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُّحْسِنُونَ ﴾ (٢) فهم مع الله بالتقوى ، ومع الناس بالإحسان .

ونقل العلأمة ابن القيم عن متقدمى الصوفية قولهم : التصوف هو الخُلُق ، فمَن زاد عليك فى الخُلُق ، فقد زاد عليك فى التصوف !

وعلّق ابن القيم على ذلك بقوله : بل الدين هو الخُلُق ، فمَن زاد عليك فى الخُلُق ، فقد زاد عليك فى الدين !

وهذا صحيح ، وحسبنا فى ذلك الحديث النبوى الشريف : « إنما بُعِثْتُ لأُتمم صالح الأخلاق » (٣) .

* * *

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة . (٢) النحل : ١٢٨

(٣) رواه البخارى فى الأدب المفرد ، والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى (٢/٦١٣) والبيهقى فى الشُعَب كما فى الجامع الصغير .

● أمور أربعة يجب التركيز عليها :

وأهم ما نُركِّز عليه فى هذه التربية أمور أربعة :

١ - إخلاص النية :

الأمر الأول : تصحيح النية حتى يخلص العمل للّه وحده ، فلا يشوبه شىء من حب المال أو حب الجاه والمنزلة ، والشهرة عند الناس ، أو غير ذلك مما يدخل فى الرغبات الخفية للأنفس .

وذلك أن « العمل الإسلامى » عبادة وجهاد ، ولا تُقبل العبادة إلَّا بنية خالصة للّه تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (١) .

ولا يكون الجهاد فى سبيل اللّه إلَّا بتجريد القصد للّه : أن تكون كلمة اللّه هى العليا .

واللّه تعالى لا يحب العمل المشترك ، ولا القلب المشترك . العمل المشترك لا يقبله ، والقلب المشترك لا يُقبل عليه .

ولهذا حرص الإمام البنا أن يجعل أول شعاراته : « اللّه غايتنا » ليؤكد أن رضوان اللّه تعالى ومثوبته هى غاية غاياتنا . قد نقول : نريد إقامة مجتمع إسلامى ، أو إقامة دولة إسلامية ، أو حكم إسلامى ، أو استعادة الحياة الإسلامية المتكاملة ، أو غير ذلك من الأهداف القريبة والبعيدة . ولكن غايتنا من هذا كله أن يرضى اللّه تعالى عنا ، ويتقبلنا فى عباده الصالحين .

ينبغى أن يضع كل عامل للإسلام نصب عينيه هاتين الأيتين : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

---

(١) البينة : ٥ (٢) الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣

ORBIKAN.COM

إن الدعوات لا تنتصر بطلاّب الأضواء ، وعبّاد الشهرة والظهور ، بل بمن سماهم الحديث الشريف « الأبرار الأتقياء الأخفياء .. الذين إن حضروا لم يُعرفوا وإن غابوا لم يُفتقدوا ، قلوبهم مصابيح الهُدَى » (١) .

٢ - مراقبة اللّه تعالى :

والأمر الثانى : مراقبة اللّه تعالى عند العمل ، حتى يأخذ حقه من الإحسان والإتقان .

ولهذا حين سأل جبريل النبى ﷺ عن « الإحسان » قال : « الإحسان أن تعبد اللّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وهذا مطلوب فى كل عمل ، دينى أو دنيوى، فإحسان العمل فريضة على كل مسلم ، فإن اللّه كتب الإحسان على كل شىء . ولا يحفز على الإحسان شىء مثل يقينه بأن اللّه تعالى مُطَّلع عليه ، وناظر إليه ، يسمع ويرى .

ويتأكد ذلك إذا كان العمل ذا طبيعة دينية مثل العمل فى الدعوة الإسلامية والحركة الإسلامية . وهو إما فرض عين أو فرض كفاية يقوم فيه العاملون بالنيابة عن غيرهم من القاعدين والمتفرجين - بل والمثبطين والمتحاملين - من أبناء الأمة .

إن العامل فى هذا الميدان لا يفتقر إلى رقابة ، ولا إلى تفتيش إدارى ، لأنه عليه رقابة من داخل ذاته ، وهو أول مفتش على نفسه . وهو يذكر أبداً قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٢) .

---

(١) رواه الحاكم من حديث معاذ وقال : صحيح ولا علة له ، ووافقه الذهبى (٤/١) كما أقره المنذرى فى الترغيب والترهيب . انظر : تعليقنا على الحديث رقم (١٩) من كتابنا « المنتقى من الترغيب والترهيب » .

(٢) الحديد : ٤

OBEIKAN.COM

٣ - محاسبة النفس :

والأمر الثالث : محاسبة النفس . فإذا كان تصحيح النية قبل العمل ، والمراقبة عند العمل ، فإن المحاسبة تأتى بعد العمل . وقد جاء فى الحديث : « الكيِّسُ مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز مَن اتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله » [١] . والكيِّس : العاقل . ومعنى « دان نفسه » : أى حاسبها ، كما نقله النووى عن الترمذى وغيره من العلماء .

وجاء عن عمر : حاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا ، وزِنوا أعمالكم قبل أن توزَنَ عليكم .

وعن ميمون بن مهران : التقى أشد حساباً لنفسه من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح .

وأصل ذلك فى القرآن قوله تعالى : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [٢] .

وهذه المحاسبة للنفس تدفع بها دائماً إلى الاجتهاد فى تصويب الخطأ ، واستكمال النقص ، والتطلع إلى الكمال ، وتبعد بالمرء عن الإعجاب بنفسه ، والغرور بعمله ، والازدراء لغيره .

وهذه المحاسبة أصل من الأصول الأخلاقية والتربوية فى الإسلام ، ولهذا أجمع على ضرورتها المتصوفة والأخلاقيون والمربون .

والناس يرددون اليوم كلمة « النقد الذاتى » ولا حَرَجَ فى استعمال الكلمة إنما الحرج فى اعتبار هذا المعنى جديداً علينا ، مقتَبساً من غيرنا . وما هو إلا محاسبة النفس التى جاء بها قرآننا وسنتنا ، وحفلت بها مصادر ثقافتنا .

---

(١) رواه الترمذى عن شداد بن أوس وحسّنه (٢٤٦١) وابن ماجه (٤٢٦٠) وأحمد (١٢٤/٤) ، ورواه الحاكم فى موضعين : فى (٢٥١/٤) وصححه ووافقه الذهبى ! وقبل ذلك فى (٥٧/١) وصححه على شرط البخارى ، ورده الذهبى بأن فى إسناده أبا بكر بن أبى مريم ، وهو واهٍ .

(٢) القيامة : ٢

٤ - التوكل على الله :

والأمر الرابع : التوكل على الله تعالى . فهو السلاح الروحى الذى يجعل من الضعف قوة ومن القلة كثرة ، وهو الذى واجه به رُسُل الله طغاة أقوامهم ولم يخفهم طغيانهم ، ولم يزلزلهم أذاهم ، بل قالوا : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ، وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (١) .

ومعنى التوكل على الله : اتخاذه وكيلاً لك : تُسلم زمامك إليه ، وتجعل اعتمادك عليه ، كما قال تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ (٢) .

وذلك بعد أن تعد عدتك ، وتأخذ حذرك وحيطتك ، ثم تمضى وأنت موقن أن الله لن يتخلى عنك .

وليس معنى التوكل إطراح الأسباب ، وإهمال السُنَن ، وانتظار الحصاد بغير زرع ، أو نمو الزرع بغير تعهد . بل التوكل ما كان عليه النبى ﷺ والرُسُل من قبله : بذل كل ما فى الوسع ، وترك النتائج لله ثقة به ، ويقيناً بوعده ، وإيماناً بنصره .

رتَّبَ رسولنا الكريم لهجرته كل ما استطاع ترتيبه ، ولكن المشركين أمكنهم الوصول إلى الغار الذى لجأ إليه ، فقال أبو بكر : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ! فقال ﷺ : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (٣) .

وهذا ما قاله موسى لقومه حين اتبعهم فرعون بجنوده ، وغدا البحر من أمامهم ، والعدو من خلفهم : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٤) .

---

(١) إبراهيم : ١٢ — (٢) المزمل : ٩

(٣) التوبة : ٤٠ — (٤) الشعراء : ٦١ - ٦٢

ما أحوجنا إلى هذا اليقين لنواجه به أحفاد فرعون وأبى جهل ، ونحن واثقون أن اللّه معنا . ومَن كان اللّه معه فلن يضيع . ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

* * *

• التركيز على تحرى الصواب مع الإخلاص :

والمطلوب فى تكوين الطلائع أن يتكامل فيهم الأمران : إخلاص النية ، وصواب العمل .

إن الإخلاص وصدق النية مطلوب فى كل عمل إسلامى ، لأنه عبادة وجهاد ، ولا يُقبل عبادة ولا جهاد إلا بنية ، كما ذكرنا من قبل ، وهذا سر اهتمام علماء الأمة بحديث : « إنما الأعمال بالنيّات » حتى اعتبروه ربُع الإسلام أو ثُلثه أو نصفه .

ولكن هذا وحده لا يكفى لقيادة سفينة الحركة الإسلامية وسط الأمواج والأنواء والأعاصير ، فلا بد - مع الإخلاص - من قدرة على معرفة الصواب من الخطأ ، بل على معرفة أصوب الرأيين ، وأهون الضررين ، وأرجح المصلحتين . وقد قيل : إن العاقل هو الذى يعرف الخير من الشر ، أما الحكيم فهو الذى يعرف خير الشرين ، إن كان فى الشر خيار .

صحيح أن المسلم مطالَب بالاجتهاد والتحرى ، وأن المخطىء فى اجتهاده معذور بل مأجور ، ولكنه - كما بيَّن لنا الحديث الشريف - مأجور أجراً واحداً، على حين يؤجر المصيب أجرين : أجراً على تحريه وبذله جهده ، وأجراً على اصابته للحق ، وإدراكه للصواب .

وإنما كان للمصيب أجران ليظل « تحرى الصواب » نُصب عين المجتهد ، فلا يُفَرِّط فى الأجرين عاقل ، ولا يرضى بالدون مؤمن .

---

(١) آل عمران : ١٦٠.

وأحب أن أنبِّه هنا على أمرين أساسيين :

الأول : أن الذى ينال الأجر الواحد هو مَن كان أهلاً لأن يدخل فى زُمرة المجتهدين ، بأن يكون لديه الحد الأدنى من شروط الاجتهاد ، ولا أعنى بها هنا شروط الاجتهاد الفقهى المذكورة فى كتب أصول الفقه ، بل لكل موضوع يجتهد فيه شروطه الخاصة . فالذى يجتهد فى الأمور السياسية غير الذى يجتهد فى الشؤون العسكرية ، أو الاقتصادية أو التربوية ، إلى جوار ما لا بد منه من الشروط العلمية والفكرية العامة .

فأما مَن هجم على أمر لا يُحسنه ، وحكم فيه بغير بيِّنة ولا سلطان ، فقد أساء إلى نفسه ، وإلى موضوعه ، وإلى الناس ، ولم ينل من الأجر نقيراً ولا قِطْميراً ، بل اكتسب إثماً مبيناً ، لقوله بلا علم ، وخوضه فيما لا اختصاص له به .

ولهذا جاء فى الحديث : « القضاة ثلاثة : اثنان فى النار ، وواحد فى الجنة . رجل عَلِمَ الحق فقضى به ، فهو فى الجنة ، ورجل قضى للناس على جهل ، فهو فى النار ، ورجل عرف الحق فجَارَ فى الحكم ، فهو فى النار » (١) .

فجعل الذى يقضى على جهل فى النار ، كالذى يقضى بالباطل على علم ، لأنه أدخل نفسه فيما لا يُحسن ، وكان الواجب عليه أن ينسحب من موقعه ويدعه لمن هو أهله .

بل مثل هذا ، وإن أصاب ، فصوابه غير محسوب له ، لأنه رمية من غير رامٍ ، واجتهاد من غير أهله ، فلا قيمة له ، لافتقاده سلامة المنهج .

وفى هذا جاء الحديث : « مَن قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » (٢) .

---

(١) رواه أصحاب السنن الأربعة والحاكم عن بريدة كما فى صحيح الجامع الصغير (ى ٤٤٤٦) وروى نحوه الطبرانى عن ابن عمر (٤٤٤٧) .

(٢) رواه الترمذى فى أبواب التفسير (٢٩٥٣) واستغربه . وأبو داود فى العلم (٣٦٥٢) ، ونسبه المنذرى للنسائى أيضاً ، وهو كذلك فى ضعيف الجامع الصغير .

OBEIKAN.COM

وإنما اعتبر هذا مخطئاً ، مع أنه أصاب بالفعل ، لأن إصابته جاءت اعتباطاً ، ولم تجيء نتيجة لمنهج صحيح التزمه واتبعه . ومثل هذا الصواب الاعتباطى لا يعتد به .

الثانى : أن الذى يؤجر على اجتهاده ، ولو أجراً واحداً . إنما يستحق ذلك إذا بذل كل جهده ، واستفرغ كل وسعه ، فى تحرى الحقيقة ، وطلب الصواب ، وموجب ذلك أن يستخدم كل الإمكانات المتاحة ، وكل الوسائل المُعِينة ، وكل المعلومات المتوافرة ، للوصول إلى الصواب ، كما عليه أن يستشير ويستعين بكل ذى خبرة ، طلباً للرأى الأسدّ ، والعمل الأرشد .

* * *

● إعداد القيادات للمستقبل :

إن مشكلة الحركة الإسلامية فى كثير من الأقطار : أن القاعدة فيها أكبر من قدرة القيادة ، ولا حَرَجَ علينا أن نعترف بذلك .

ذلك أن الصَحْوَة الإسلامية المعاصرة قد اتسعت طولاً وعرضاً ، وامتدت أشعتها مشرقاً ومغرباً ، فاتسعت بذلك قاعدة الحركة الإسلامية وتنامت ، ولكنها فى عدد من البلدان لم تفرز قيادات تكافىء القاعدة المتصاعدة المتنامية ، لا من الناحية الفكرية ولا التربوية ولا السياسية .

وهذا ما يجب على القيادات القائمة أن تحسب حسابه ، وتعد له عدته فى المرحلة القادمة .

وأول واجب هنا أن يعلم أن الإخلاص للدعوة أو التضحية فى سبيلها أو السبق التاريخى فى العمل لها ، لا تكفى وحدها مرشحات لقيادة الحركة ، وإن كانت مرجحات لها وزنها ، وقيمتها عند الله وعند الناس .

ولكن لا بد من قدرات فكرية ونفسية وعملية - إلى جوار الشروط الإيمانية والأخلاقية والسلوكية الأساسية - تتوافر فى القيادة المنشودة .

OBEIKAN.COM

ولا أعنى بالقيادة الشخص الذى يكون على قمة الهرم الإدارى ، بل المجموعة التى تُخَطِّط للعمل ، وتُحَرِّكه وتوجِّهه ، وتُفَجِّر به طاقات كل العاملين معها ؛ تشغلهم بالبناء عن الهدم ، وبالعمل عن الجدل ، وبالجد عن البطالة واللَّهو .

ولا يجوز أن تقف القيادات التاريخية عقبة كئوداً أمام الدماء الجديدة ، وأن تعتبر القيادة أمراً مؤبداً ، وأن مَن دخلها لا يخرج منها ، فتحول دون بروز المواهب الشابة ، والقدرات الصاعدة

ولا بد من إطراح الفكرة القائلة بأن القيادات تُختار مدى الحياة ، كما كان الأمر فى شأن الخلفاء الراشدين الذين أمِرْنا أن نتبع سُنَّتهم .

فالصواب أن هذه السوابق التاريخية لا تُعَدّ شرعاً ملزماً للأمة إلى يوم القيامة ، وقد ناقشنا ذلك فى موضع آخر .

على أن الأمر المهم بل الضرورى هو إعداد القيادات المنشودة للمرحلة القادمة حتى يتولى زمام الأمور كل قوى أمين ، حفيظ عليم .

لا بد من إعداد قيادات فكرية ، وقيادات تربوية ، وقيادات سياسية .

وهذا ما يجب التفكير الجدى فى اتخاذ الأساليب والوسائل العملية لإيجاده والخروج به من حيز النظر إلى حيز التطبيق .

• معهد خاص لإعداد القيادات

وأقترح لذلك إنشاء معهد يضم مجموعة من النوابغ المخلصين الذين تتوافر فيهم الصفات العقلية والنفسية والإيمانية والسلوكية ، وأن يُزكِّيهم عدد من الشخصيات المعروفة البصيرة بخصائص الرجال ، وأن يُعْقَد لهم بعض الاختبارات المتنوعة تحريرية وشفهية ، حتى يُقبَلوا فى هذا المعهد .

ويحسن أن يكون هذا المعهد داخلياً ، ليتعايشوا فيه ، ويحيوا حياة ربانية علمية دعوية أخوية جهادية .

ويجب أن توضع لهذا المعهد مناهج تتسم بالشمول والعمق والتنوع ، وتجمع بين الأصالة والمعاصرة ، كما تجمع بين العلوم الدينية والعلوم الإنسانية من منظور إسلامى ، كما تهتم بدراسة الواقع المعيش محلياً وعربياً وإسلامياً وعالَمياً ، مع إعطاء عناية لواقع القُوَى المعادية لديننا وأمتنا ومسيرتنا . ويلتقى فى هذا المعهد العلم والعمل ، والنظر والتطبيق .

كما يجب أن يُختار لتدريس هذه المناهج من الأساتذة الثقات مَن يجمع بين العلم الموثّق ، والفكر الناضج ، والإيمان الصادق ، والبُعد عن الإفراط والتفريط ، وأن يكون هناك تكامل وتناسق بينهم بحيث لا يهدم أحدهم ما يبنيه آخر ، ولا يُشَرِّق بعضهم ويُغَرِّب آخرون ، أو يميل هذا إلى اليمين وذاك إلى اليسار ، فتنشأ من ذلك بلبلة وتناقض واضطراب فى الفكر والشخصية .

لا أعنى أن يكون أمثال هؤلاء الأساتذة الكبار نسخاً مكررة ، بل أعنى التوافق فى الاتجاه العام وفى القضايا الكبرى والفلسفة الكلية .

ومن هنا أشير إلى بعض الملامح أو المعالم التى يتسم أو يتميز بها الفكر الذى نريد ترسيخه فى هذا المنهج المأمول .

* * *

معالم وخصائص للفكر المنشود

والذى أحب أن أؤكده هنا تأكيداً يزيل كل ريب ، ويزيح كل غموض : أنه لا بد - مع التربية الإيمانية التى هى الأساس والقاعدة للبناء الأخلاقى لطلائع الحركة وقيادات المستقبل - من تربية فكرية راسخة ، مؤسَّسة على ما ذكرناه من « الفقه » الذى ننشده للحركة فى غدها المرتقَب .

والإيمان - عندنا نحن المسلمين - لا يتعارض مع العقل والفكر ، بل يبنى عليه ويتغذى به ، والمؤمنون فى نظر القرآن هم « أُولوا الألباب » ، والقرآن آيات « لقوم يعقلون » أو « يتفكرون » ، والعقل عند محققى الأمة أساس النقل ، فلولاه ما استدل على وجود اللّه ، ولا على إثبات النبوّة .

والقرآن بتعاليمه ينشىء « العقلية العلمية » التى تتعبد بالفكر ، وتؤمن بالبرهان ، وترفض الخرافة ، وتنكر التقليد للآباء ، أو للسادة والكبراء [١] .

فكر علمى

وللفكر الذى تقوم عليه تربيتنا المرجوة : معالم وخصائص أساسية يجب أن يحرص عليها المربون ، وتؤكدها مناهج التربية .

أولها : أنه « فكر علمى » بكل ما تحمله ، وتوحى به كلمة « علمى » من معنى .

ولا نعنى بـ « الفكر العلمى » ما يتعلق بالعلوم البحتة والتطبيقية وإن كان هذا فرضاً على المسلمين ، بل نعنى به ذلك الفكر الـذى لا يقبل دعوى بغير دليل ، ولا نتائج بغير مقدمات ، ولا يقبل من الأدلة إلا الموثّق ، ولا من المقدمات إلا اليقينى الذى لا يُرتاب فيه .

---

(١) انظر كتابنا : « الرسول والعلم » ص ٣٨ - ٤٠ ط . دار الرسالة ببيروت ، ودار الصحوة بالقاهرة .

نريد أن يسود « التفكير العلمي » وتسود « الروح العلمية » كل علاقاتنا ومواقفنا وشئون حياتنا ، بحيث ننظر إلى الأشياء والأشخاص والأعمال ، والقضايا والمواقف « نظرة علمية » ونصدر قراراتنا الاستراتيچية والتكتيكية ، فى الاقتصاد والسياسة والتعليم ، وغيرها بعقلية علمية ، وبروح علمية بعيداً عن الارتجالية والذاتية ، والانفعالية ، والعاطفية ، والغوغائية ، والتحكمية ، والتبريرية التى تسود مناخنا اليوم ، وتصبغ تصرفاتنا إلى حد بعيد ، فمَن سلم من أصحاب القرار من اتباع هواه الشخصى ، أو هوى فئته وحزبه ، كان أكبر همه اتباع ما يُرضى أهواء الجماهير ، لا ما يحقق مصالحها ، ويؤمِّن مستقبلها ، فى وطنها الصغير ، ووطنها الكبير ، والأكبر .

و « للروح العلمية » دلائل ومظاهر أو سمات ، كنتُ أشرتُ إليها ، أو إلى أهمها فى كتابى « الحل الإسلامى فريضة وضرورة » فى مجال « النقد الذاتى » للحركة الإسلامية يحسن بى أن أذكِّر بها هنا ، وأؤكدها ، فى مجال تأكيد حاجة الأمة إليها لا إلى « العِلمانية » المستوردة ، وفى بعض الإعادة إفادة .

● سِمات الروح العلمية المنشودة :

وللروح العلمية سِمات أبرزها :

١ - النظرة الموضوعية إلى المواقف والأشياء والأقوال بغَضِّ النظر عن الأشخاص كما قال علىّ بن أبى طالب : « لا تعرف الحق بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله » .

٢ - احترام الاختصاصات ، كما قال القرآن : ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ (١) ، ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ (٢) ، ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (٣) . فللدين أهله ،

---

(١) النحل : ٤٣ (٢) الفرقان : ٥٩ (٣) فاطر : ١٤

وللاقتصاد أهله ، وللعسكرية أهلها ، ولكل فن رجاله ، وخاصة فى عصرنا ، عصر التخصص الدقيق ، أما الذى يعرف فى الدين والسياسة ، والفنون والشئون الاقتصادية والعسكرية ، ويفتى فى كل شىء ، فهو فى حقيقته لا يعرف شيئاً .

٣ - القدرة على نقد الذات ، والاعتراف بالخطأ ، والاستفادة منه وتقويم تجارب الماضى تقويماً عادلاً ، بعيداً عن النظرة « المنقبية » التى تنظر إلى الماضى على أنه كله مناقب وأمجاد !

٤ - استخدام أحدث الأساليب وأقدرها على تحقيق الغاية والاستفادة من تجارب الغير حتى من الخصوم ، فالحكمة ضالة المؤمن ، أنَّى وجدها ، فهو أحق الناس بها .

٥ - إخضاع كل شىء - فيما عدا المسلَّمات الدينية والعقلية ، للفحص والاختبار والرضا بالنتائج ، كانت للإنسان أو عليه .

٦ - عدم التعجل فى إصدار الأحكام والقرارات ، وتبنى المواقف إلا بعد دراسة متأنية مبنية على الاستقراء والإحصاء ، وبعد حوار بنَّاء ، تظهر معه المزايا ، وتنكشف المآخذ والعيوب .

٧ - تقدير وجهات النظر الأخري ، واحترام آراء المخالفين فى القضايا ذات الوجوه المتعددة ، فى الفقه وغيره ، ما دام لكل دليله ووجهته ، وما دامت المسألة لم يثبت فيها نص حاسم يقطع النزاع ، ومن المقرر عند علمائنا : أن لا إنكار فى المسائل الاجتهادية،إذ لا فضل لمجتهد على آخر ، ولا يمنع هذا من الحوار البنَّاء ، والتحقيق العلمى النزيه فى ظل التسامح والحب .

* * *

● بعض ما ينافى التفكير العلمى عندنا :

ومما ينافى التفكير العلمى تبسيط الأمور المعقَّدة ، وتهوين الأمور الكبيرة ، والنظر إلى المشكلات العويصة بسطحية مخيفة ، ومعالجة القضايا الكبرى بعقلية العوام وطريقة الدراويش !

وإن من أشد الأمور خطراً على تفكيرنا : أن نزعم أن وراء كل ما لا يعجبنا أيدياً خفية ، وقوَى أجنبية جهنمية ، خططت لهذا الأمر بدهاء ، وبيتت له بليل ، حتى نفذّناه نحن برضانا واختيارنا.ويعض هذا صحيح ، ولكن التعميم خطأ .

إن هذا التفسير التآمرى للتاريخ وللأحداث داخل أوطاننا : سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية ، أو تربوية ، يثمر ثمرتين رديئتين :

الأولى : إنه إذا زاد هذا الشعور يثمر نوعاً من « الجبرية » التى لا تملك إزاء هذه المخططات الجهنمية حيلة ، لما تملك تلك من الإمكانات الهائلة مادياً وأدبياً ، إزاء ما نحن عليه من عجز ووهن ، حيالها ، وبهذا نصبح « أحجاراً على رقعة الشطرنج » كما قيل ، ومثل هذا الشعور لا ينتج إلا اليأس والهزيمة النفسية القاتلة .

الثانية : إن هذا يعوقنا عن النقد الذاتى لأنفسنا ، والمحاولة المخلصة لاكتشاف عيوبنا ، ومعرفة أمراضنا ، ودراسة أخطائنا وخطايانا ، والاجتهاد فى تقصى الأسباب ، ليمكن تشخيص الداء ، ووصف الدواء ، ما دام كل قصور أو تقصير أو فساد أو خراب ، سببه تخطيط أجنبى ماكر ، وليس السبب من عند أنفسنا .

مع أن القرآن يُعَلِّمنا أن نرجع باللَّوم على أنفسنا كلما أصابتنا مصيبة ، أو حلّت بنا هزيمة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (١) .

وبعد غزوة أُحد وما أصاب المسلمين فيها من قرح ، فقدوا فيه سبعين من أبطالهم ، بعد انتصار مُشَرِّف فى بدر ، تساءلوا عن سر هذا ، فكان جواب القرآن ما ذكره الله فى سورة آل عمران : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (٢) .

* * *

(١) الشورى : ٣٠.

(٢) آل عمران : ١٦٥

OBEIKAN.COM

فكر واقعى

ومن خصائص الفكر العلمى الذى نريده للحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة أن يكون فكراً قائماً على الواقع لا على الخيال ، ولا على الأحلام .

● الموازنة بين الطموح والإمكانات :

ومن الواقعية التى نحتاج إلى تثبيتها فى فكرنا : أن نوازن بين طموحنا وإمكاناتنا ، بين ما نصبو إليه وما نقدر عليه ، فلا نُوَرِّط أنفسنا فى أمور لم نعد لها العدة ، ولم نهيىء لها الوسائل اللازمة .

إن القرآن الكريم يجيز للمقاتل أن يفر من الزحف إذا كان « متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة » .

ويُرَخَّص له فى حالة الضعف أن ينسحب من المعركة إذا كان جيش العدو أكثر من ضعف جيش المسلمين : ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فيكُمْ ضَعْفاً ، فَإنْ يَكُنْ مِّنكُمْ مائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبواْ مائَتَيْن ، وَإِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

وفى معركة مُؤْتة كان جيش الروم أضعاف جيش المسلمين (كان جيش المسلمين ثلاثة آلاف وجيش الروم يُقَدَّر بنحو ١٥٠ ألفاً) .

وهذا ما جعل القائد العبقرى خالد بن الوليد يُخَطِّط لانسحاب المسلمين بسلام ولا يغامر بهم فى معركة تشبه الانتحار ..

وبعد رجوعه مع أصحابه إلى المدينة استقبلهم المتحمسون من شباب المسلمين بالحصى يرمونهم به ، واصفين إياهم بأنهم « الفُرَّار » !

ولكن النبى ﷺ دافَعَ عنهم قائلاً : « بل هم الكُرَّار إن شاء اللّه » .

---

(١) الأنفال : ٦٦

إن القائد الحكيم هو الذى يحرص على حياة جنوده ، وهذا ما جعل عمر فى أول الأمر يتهيب من غزو الروم قائلاً للذين يُحَرِّضونه على ذلك : واللّهِ لمسلم واحد أحب إلىّ من الروم وما حوت !

والمسلم البصير هو الذى لا يُوَرِّط نفسه فيما لا يستطيعه ، واللّه تعالى يقول : ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ (١) .

وفى الحديث : « لا يحل لمسلم أن يذل نفسه . قيل : يا رسول اللّه ، وكيف يذل نفسه ؟ قال : يحملها من البلاء ما لا يطيق » .

ومن الخطأ الذى يمكن أن تقع فيه الحركة الإسلامية : استجابتها لعواطف العامة فى اتخاذ القرارات المصيرية والهامة .

ففى بعض البلاد قد يدفع الشارع المسلم بعض قادة الحركة إلى خوض المعركة السياسية بكل قوتهم وطاقتهم ، قبل أن تنضج قدراتهم الفكرية والسياسية والفنية لمثل هذه المرحلة .

وبذلك يُحَمِّلون أنفسهم أكثر مما تطيق ، وهذا من أسباب الإخفاق من غير شك .

وهذا قد تدفع إليه العَجَلة ، وسوء تقدير العواقب ، والمبالغة فى تقويم قدرات الذات ، والتقليل من إمكانات الغير .

وقد رأينا النبى ﷺ يأبى على أصحابه فى مكة أن يبدؤوا صداماً مسلحاً مع قُوَى الشرك ، وإن آذوهم وعذّبوهم ، وكان يقول لهم : « كُفوا أيديكم وأقيموا الصلاة » .

حتى هيأ اللّه لرسوله أرضاً حرة ، وقاعدة صلبة للانطلاق ، فبدأ منها الجهاد والصدام ، ونزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) التغابن : ١٦ (٢) الحج : ٣٩

● إهالة التراب على المشكلات التاريخية :

نريد من الفكر الجديد أن يهيل التراب على المشكلات التاريخية التى شغلت الفكر الإسلامى فى وقت من الأوقات ، وبدّدت طاقته فى غير طائل ، مشكلة الذات والصفات ، هل الصفات عين الذات أو غيرها ؟ أو هى لا عين ولا غير؟ مشكلة خَلْق القرآن - وما ترتب عليها من محنة لأئمة الإسلام ، المبالغة فى الكلام حول التأويل وعدمه بين السَلَف والخَلَف ، والطعن على الأشاعرة والماتريدية ومَن وافقهم على نهجهم من رجال الجامعات الدينية فى العالَم الإسلامى : الأزهر والزيتونة والقرويين وديوبند وغيرها .

كل هذا لا ينبغى أن يكون مشغلة الفكر الذى نعده للمرحلة القادمة ، ليواجه الصهيونية والصليبية والماركسية والفلسفات الهدّامة القادمة من الغرب والشرق .

* * *

● جدل لا ضرورة له اليوم :

والفكر الواقعى الذى ننشده : فكر يهتم بالبناء والعمل لا بالمراء والجدل فإن الله إذا أراد بقوم سوءاً سلّط عليهم الجدل ، وحرمهم العمل .

وأعنى بالجدل هنا : الجدل فى مشكلات تاريخية ، أو نظرية بحتة ، أو خلافية بطبيعتها .

ومن الجدل الذى لا ضرورة له ، ولا جدوى من ورائه اليوم : ما يُثار بين الحين والحين حول طبيعة الجهاد العسكرى (القتال) فى الإسلام : هل هو جهاد « دفاعى » للذود عن عقيدة الإسلام وحرماته وأرضه ؟؟ أو هو جهاد « هجومى » لنشر الاسلام فى العالم ؟

كتب فى ذلك كثيرون من المحدَثين واختلفوا فريقين :

فمن فريق الرأى الأول : السيد رشيد رضا ، والشيخ محمود شلتوت ، والشيخ محمد عبد الله دراز ، والشيخ عبد الوهاب خلاّف ، والشيخ محمد أبو زهرة ، والشيخ محمد الغزالى ، والشيخ عبد الله بن زيد المحمود ..

وحجتهم : آيات كثيرة من كتاب الله تعالى مثل : ﴿ وَقَاتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُواْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ (٢) ... إلخ .

ومن الفريق الثانى : العلامة أبو الأعلى المودودى ، والشهيد سيد قطب وغيرهما ..

وحجتهم : ما سموه « آية السيف » التى قالوا : إنها نَسَخت كل ما سبق من آيات كانت تمثل مرحلة انتهت . وان اختلفوا فى آية السيف نفسها : أى آية هى ؟؟ .

ورأيى أن لا داعى لهذه المعركة الجدلية حول هذه القضية فى الوقت الحاضر ، لثلاثة أسباب :

أولها : أننا - نحن المسلمين - لم نقم بالجهاد المفروض علينا فرضاً عينياً فى كثير من بلاد الإسلام لتحرير أرض المسلمين من الغاصبين ، والمعتدين مثل فلسطين وأريتريا والفلبين وأفغانستان وطشقند وبخارى وسمرقند ، وأزبكستان وأذربيجان وغيرها من الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفييتى ، ومثلها فى الصين وأثيوبيا وتايلاند وغيرها .. مما لا يجادل مسلم فى وجوب استنقاذه من أيدى القوى المعادية للإسلام ، ومما ينطبق عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً ﴾ (٣) .

---

(١) البقرة : ١٩٠ . (٢) النساء : ٩٠ . (٣) النساء : ٧٥

OBEIKAN.COM

ولم تقم الأمة المسلمة بهذا الجهاد الدفاعى المفروض عليها ، فكيف تتحدث عن جهاد هجومى ؟؟

الثانى : أن المقصود من الجهاد الهجومى - عند مَن يقول به - هو : إزاحة القُوَى المتسلطة على خلق الله ، والتى تقف حاجزاً أمام المسلمين حتى لا يُبَلِّغوا كلمة الله إلى الناس .

واليوم لا تستطيع قوة أن تقف أمامنا إذا صدقت نيتنا ، واتجهت قدرتنا إلى تبليغ دعوتنا إلى العالَم ، فالكلمة المسموعة والمقروءة والمرئية يمكن توصيلها إلى الدنيا كلها بكل اللُّغات ، عن طريق الإذاعة والتلفزة والكتب والرسائل والصحافة والجاليات الإسلامية المنتشرة فى أنحاء العالَم .

ومع هذا نحن أكثر الناس تقصيراً في هذه الناحية إذا قيس جهدنا بجهود رجال التنصير ، وما يقدِّمونه لنشر عقيدتهم وترجمة أناجيلهم بلغات ولهجات قد تُعَدّ بالآلاف،ونشر مبعوثيهم من المُبَشِّرين والمُبَشِّرات إلى أنحاء الأرض ، بمئات الألوف ، حتى إنهم يطمعون فى تنصيرنا حتى نتبع مِلّتهم !!

الثالث : أننا عالة على غيرنا فى القوة العسكرية ، وإن الذين نريد أن نجاهدهم جهاداً هجومياً هم الذين يصنعون السلاح بكل أنواعه ، ويبيعونه لنا ! ولولاهم لكنّا عزلاً لا نقدر على شىء !!

فما معنى أن نتحدث عن الهجوم لإخضاع العالَم لرسالتنا ، ونحن لا نملك من السلاح إلا ما ملّكوه لنا ، وسمحوا ببيعه إيانا ؟؟

* * *

فكر سَلَفى

ومن خصائص هذا الفكر : أنه فكر سَلَفى .

ونعنى بالفكر السَلَفى هنا : المنهج الفكرى الذى يتمثل فى فهم خير قرون الأمة من الصحابة ومَن تبعهم بإحسان ، لهداية القرآن ، وهَدى النبوةٌ .

• لباب المنهج السَلَفى الحق :

وهو منهج يقوم فى جملته على أصول ومبادئ هى :

١ - الاحتكام للنصوص المعصومة لا لأقوال الرجال .

٢ - رد المتشابهات إلى المحكمات ، والظنيات إلى القطعيات .

٣ - فهم الفروع والجزئيات فى ضوء الأصول والكليات .

٤ - الدعوة إلى الاجتهاد والتجديد ، وذم الجمود والتقليد .

٥ - الدعوة إلى الالتزام لا التسيب فى مجال الأخلاق .

٦ - الدعوة إلى التيسير لا التعسير فى مجال الفقه .

٧ - الدعوة إلى التبشير لا التنفير فى مجال التوجيه .

٨ - العناية بغرس اليقين لا بالجدل فى مجال العقيدة .

٩ - العناية بالروح لا بالشكل فى مجال العبادة .

١٠ - العناية بالاتباع فى أمور الدين ، والاختراع فى أمور الدنيا .

فهذا هو لُباب منهج السَلَف الذى تميَّزوا به ، وتربى فى رحابه أفضل أجيال الأمة علماً وعملاً ، ممَن أثنى عليهم اللّه تعالى فى كتابه ، وأثنى عليهم رسوله فى أحاديثه . وصدَّق ذلك الواقع التاريخى ، فهم الذين نقلوا إلى مَن بعدهم

OBEIKAN.COM

القرآن ، وحفظوا السُنَن ، وفتحوا الفتوح ، وأشاعوا العدل والإحسان ، وأقاموا دولة العلم والإيمان ، وأسسوا حضارة ربانية إنسانية أخلاقية عالَمية ، لم يزل ذكرها فى سمع التاريخ .

• ظلم « السَلَفية » من أنصارها وخصومها :

وقد ظُلِمَت كلمة « السَلَفية » من أنصارها ، ومن خصومها على السواء .

أما من أنصارها - أو مَن يعدهم الناس ويعدون أنفسهم أيضاً أنصارها ، أو من كثير منهم على التحقيق - فقد حصروها أو كادوا فى شكليات وجدليات حول مسائل فى علم الكلام ، أو مسائل فى علم الفقه ، أو أخرى فى علم التصوف ، وعاشوا نهارهم ، وباتوا ليلهم ، ينصبون المجانيق ، ويقذفون بالمقاليع ، لمن يخالفهم فى أى مسألة من هذه المسائل ، أو أى جزئية من هذه الجزئيات .

حتى خيل لبعض الناس أن منهج السَلَف هو منهج المراء والجدل ، لا منهج البناء والعمل ، وأن السَلَفية تعنى الاهتمام بالجزئيات على حساب الكليات ، وبالمختلف فيه على حساب المتفَق عليه ، وبالشكل والصورة على حساب الجوهر والروح .

وأما خصوم « السَلَفية » فهم يصفونها بـ « الرجعية » وأنها أبداً تنظر إلى الخلف ، ولا تتجه إلى الأمام ، فلا تهتم بالحاضر ولا المستقبل ، وأنها متعصبة لا تستمع إلى الرأى الآخر ، ولا تُلقى إليه بالاً ، وأنها ضد التجديد والإبداع والاجتهاد ، وأنها لا تعرف الوَسَط ولا الاعتدال .

والحقيقة أن هذا ظلم للسَلَفية الحقيقية ، ولدعاتها الأصلاء .

ولعل أبرز مَن دعا إلى السَلَفية ودافع عنها فى العصور الماضية هو شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم .

وهؤلاء أولى مَن يمثل حركة التجديد الإسلامى فى أزمانهم ، فقد كان تجديدهم شاملاً لكل علوم الإسلام .

وقد وقفوا فى وجه التقليد والعصبية المذهبية الفقهية والكلامية التى سادت وسيطرت على العقل الإسلامى فى عدة قرون .

ومع أنهم وقفوا ضد العصبية المذهبية المقلّدة ، أنصفوا أئمة المذاهب وأعطوهم حقهم من التقدير والتوقير ، كما يبدو ذلك فى رسالة « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » لابن تيمية .

ورغم حملتهم على ما دخل التصوف من انحرافات فكرية وعقدية ، وخصوصاً على أيدى أصحاب مذهب الحلول والاتحاد ، وانحرافات سلوكية على أيدى الجهلة والأدعياء والمرتزقة ، فقد أنصفوا التصوف الصحيح ، وأشادوا برجاله الربانيين المخلصين ، وكان لهم فى ذلك إنتاج خصب ، يتمثل فى مجلدين من مجموع فتاوى ابن تيمية ، وفى عدد من مؤلفات ابن القيم ، أشهرها « مدارج السالكين ، شرح « منازل السائرين » إلى مقامات ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ » فى ثلاثة مجلدات .

* * *

• اتباع منهج السَلَف لا مجرد أقوالهم :

والذى يهمنى تأكيد التنبيه عليه هنا ، هو اتباع منهج السَلَف ، لا مجرد أقوال السَلَف فى المسائل الجزئية ، فقد تأخذ بأقوالهم الجزئية وأنت بمعزل عن منهجهم الكلى المتكامل المتوازن .

وقد تلتزم بهذا المنهج بروحه ومقاصده ، وإن خالفتَ بعضهم فى بعض ماذهبوا إليه من آراء واجتهادات .

وهذا هو موقفى من الإمامين ابن تيمية وابن القيم ، فأنا احترم منهجهما الكلى ، وأتفهمه تماماً ، ولكن هذا لا يجعلنى آخذ بكل ما ذهبا إليه من أقوال .

ولو فعلتُ ذلك لكنتَ مقلداً تابعاً لهما فى كل شىء ، ولخالفتُ منهجهما الذى دعوا إليه ، وأوذيا فى سبيله ، وهو منهج النظر واتباع الدليل ، والنظر إلى القول لا إلى قائله .

وأى معنى للإنكار على مَن قلَّد أبا حنيفة أو مالكاً إذا قلَّدتَ أنت ابن تيمية أو ابن القيم ؟

كما أن من الظلم للشيخين أن يُذكر الجانب العلمى والفكرى فى حياتهما ، وتُنسى الجوانب الأخرى المضيئة فى سيرتهما الحافلة .

يُنسى الجانب الربانى الذى جعل رجلاً مثل ابن تيمية يقول : إنه لتمر علىَّ أوقات أقول فيها : لو كان أهل الجنة فى مثل ما أنا فيه لكانوا فى عيش طيب !

ويقول فى محنته وسجنه : ماذا يستطيع خصومى أن يصنعوا بى ؟ سجنى خلوة ، ونفيى سياحة ، وقتلى شهادة !

فهو رجل ربَّانى ذوَّاق ، وكذلك كان تلميذه ابن القيم ، كما يلمس ذلك كل مَن قرأ كتبه ، وكان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وينسى جانب الدعوة والجهاد فى حياتهما ، وقد شهد ابن تيمية بعض المعارك العسكرية بنفسه مشاركاً ومُحَرِّضاً ، وعاش الإمامان مجاهَدين لتجديد الإسلام ، وأُدْخِلا السجن فى ذلك عدة مرات ، حتى مات شيخ الإسلام فى سجنه سنة ٧٢٨ هـ .

وهذه هى السَلَفية الحقة .

وإذا نظرنا إلى العصر الحديث ، نجد أن أبرز مَن دعا إلى السَلَفية ودافع عنها بمقالاته ومؤلفاته ومجلته التى ظلت بضعاً وثلاثين سنة تحمل راية السَلَفية الحديثة هو العلاَّمة الإمام محمد رشيد رضا ، صاحب « مجلة المنار » التى نشر

OBEIKAN.COM

فيها « تفسير المنار » والتى سارت بذكرها الرُكبان فى العالَم الإسلامى مشرقه ومغربه .

وقد كان الإمام رشيد رضا مُجدِّد الإسلام فى عصره ، ومَن قرأ « تفسيره » أو قرأ « فتاواه » أو قرأ « كتبه » مثل « الوحى المحمدى » و « يسر الإسلام » و « نداء للجنس اللطيف » و « الخلافة » و « محاورات المصلح والمقلد » وغيرها من الكتب والمقالات ... علِمَ أن فكر هذا الرجل كان يمثل « مناراً » هادياً فى مسيرة الإسلام فى العصر الحديث . وكانت حياته العملية مصداقاً لفكرته السلَفية .

وهو صاحب القاعدة الذهبية الشهيرة التى تبنّاها من بعده الإمام حسن البنا ، وهى التى تقول : « نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه » !

وما أروعها من قاعدة [١] ، لو فقهها وطبّقها الذين يزعمون أنهم أتباع السلَف .

* * *

(١) بينت صحة هذه القاعدة ، وما يسندها من أدلة شرعية فى الجزء الثانى من كتابى « فتاوى معاصرة » أدعو الله أن ييسر طباعته قريباً .

فكر تجديدى

ومن خصائص الفكر الذى ننشده : أنه فكر مُجَدِّد ، لا يرضى أن يُحبس فى قفص القديم ، ولا يتعبد بالأشكال الموروثة ، ولا يجمد عند الوسائل المعهودة ، بل هو فكر يؤمن بالاجتهاد ويتبنى التجديد ، ويرفض التقليد والتبعية ، ويرى أن الجمود هو الموت ، فهو يُجَدِّد فى الفقه وفى التربية وفى السياسة ، وفى شتَّى المجالات .

● لا تنافى بين السَلَفية والتجديد :

ولا تنافى بين السَلَفية والتجديد ، كما بيَّنتُ ذلك فى كتابى « الصحوة وهموم الوطن العربى الإسلامى » بل هناك تلازم بينهما ، فالسَلَفية الحقة لا تكون إلا مجدِّدة ، والتجديد الحق لا يكون إلا سَلَفياً .

* * *

● الإسلام أقر شرعية التجديد :

لا يقال هنا : إن الحركة إسلامية المصدر والوجهة والأهداف والمبادىء ، والإسلام واحد لا يتعدد ، ثابت لا يتجدد .

لأننا نقول أولاً : إن الإسلام نفسه قد أَقَرَّ شرعية التجديد بما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود والحاكم وغيره وصححه الأئمة الثقات : « إن اللّه تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَن يُجَدِّد لها دينها » .

فالتجديد مشروع وثابت وواقع بالنص ، وليس بعد بيان رسول اللّه ﷺ بيان .

فلا ينبغى أن نخاف من كلمة التجديد فى الدين ، بعد أن صَحَّ بها الحديث . إنما الذى ينبغى هنا أن نُحَدِّد معنى « التجديد » حتى لا يتلاعب المتلاعبون بالدين وحقائقه باسم تجديدهم المزعوم ، وما هم من التجديد فى كثير ولا قليل .

وقد بيَّنتُ فى دراسة لى حول هذا الحديث الشريف : المراد بـ « التجديد » وجوانبه ومَن يقوم به .

وخلاصة القول فيه : إن تجديد شيء ما لا يعنى إزالته ، واستحداث شيء آخر مكانه ، بل تجديده يعنى إعادته أقرب ما يكون إلى صورته الأولى يوم ظهر لأول مرة،والمحافظة كل المحافظة على جوهره وخصائصه ومعالمه ، وعدم المساس بها .

وهذا ينطبق على الماديات والمعنويات . فتجديد بناء أثرى ، قصر أو معبد أو مسجد ، لا يعنى هدمه وبناء آخر مكانه على أحدث طراز ، بل إبقاءه والحرص على إرجاعه إلى صورته الأولى ما أمكن ذلك ، فهذا هو التجديد الحقيقى .

وتجديد الدين يشمل تجديد الفهم والفقه فيه ، وهذا تجديد فكرى ، كما يشمل تجديد الإيمان به ، وهذا تجديد روحى ، وتجديد العمل له والدعوة إليه ، وهذا تجديد عملى .

وكل عصر يحتاج إلى تجديد يناسبه ، ليجبر القصور ، ويستكمل النواقص ، ويعالج الأدواء .

على أن هناك منطقة لا يدخلها التجديد بحال ، وهى منطقة « القطعيات » التى قال فيها الإسلام كلمته البيِّنة الحاسمة ، سواء فى مجال العقائد أم العبادات ، أم الأخلاق ، أم التشريع ، وهى التى تُجَسِّد الوحدة العقدية والفكرية والشعورية والسلوكية للأمة المسلمة .

وقد شرحتُ ذلك فى كتب أخرى فليُرجع إليها [١]

* * *

(١) انظر على سبيل المثال : فصل « معالم وضوابط لاجتهاد معاصر قويم » من كتابنا « الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية » . وفصل « الاجتهاد والتجديد بين الضوابط الشرعية والحاجات المعاصرة » من كتاب « الأمة » : فقه الدعوة .. ملامح وآفاق - (جـ ٢ : ١٤٧ - ١٨٨) للأستاذ عمر عبيد حسنة

● ضرورة التجديد فى الوسائل :

ونقول ثانياً : إن الحركة وإن كانت إسلامية المصدر والوجهة والأهداف والمبادىء - تتخذ من المناهج والوسائل والأنظمة الاجتهادية ما تراه أصلح لخدمة دينها والتمكين له فى الأرض ، حسبما يقتضيه الزمان والمكان والحال .

فهذه المناهج والوسائل والأنظمة ليست خالدة خلود الإسلام نفسه ، وليس لها ثبات المبادىء والأصول الإسلامية ، بل هى أدوات أثمرها الاجتهاد البَشرى لإحياء الإسلام وتجديده فى الأنفس والحياة .

والإمام حسن البنا الذى وضع القواعد الأولى للعمل الحركى المنظم لتجديد الإسلام ، لم يدع العصمة لنفسه ولا لوسائله التى ألهمه اللّه الاهتداء إليها ، وهى وسائل بالغة الروعة والقوة ، وحق للشهيد سيد قطب أن يسميها « عبقرية البناء » . وحق للمرشد الموفَّق الأستاذ عمر التلمسانى أن يسميه « القائد المُلهَم الموهوب » وحق لشيخنا الغزالى ان يصفه بأنه « مُجَدِّد القرن الرابع عشر الهجرى » . ومع هذا يجب أن تخضع هذه الوسائل والأنظمة للتقويم ما بين الحين والحين ، كما يفعل رجال التربية فى مناهجهم التى يقررونها ، ويؤلفون الكتب فى ضوئها ، ثم لا تمر سنوات حتى يعيدوا النظر فيها ، بالإضافة أو الحذف أو بالتحوير والتعديل . وهذا أمر لازم لكل عمل بَشرى مهما بلغ من الدقة والإتقان ..

* * *

● حسن البنا لم يكن جامداً :

وحسن البنا نفسه لم يكن جامداً ، بل كان دائم التجديد والتطوير للوسائل والأساليب فى أبنية الحركة ومؤسساتها وأنظمتها .

ولن يضيق الشهيد حسن البنا فى قبره إذا خالفه بعض أبنائه وأتباعه فى قضية من القضايا التى كان له فيها رأى من قبل ، مثل قضية تعدد الأحزاب داخل الدولة الإسلامية ، وهو ما ذهبتُ إليه فى دراسة لى .

وكذلك إذا أضاف إلى أصوله ما يرى أنه مكمل لها . كما فعل الشيخ الغزالى فى شرحه للأصول العشرين فى كتابه الذى سماه « دستور الوحدة الثقافية للمسلمين » .

ولا يوجد مانع شرعى ولا عُرفى ولا عقلى من إعادة البحث فى الوسائل والأنظمة التربوية داخل الجماعة ، مثل نظام الأسرة والكتيبة ، وما يمكن أن يُطَعَّم به .

وكذلك البحث فى الوسائل السياسية فى ضوء المستجدات والمتغيرات المحلية والإقليمية والعالمية ، وما تقضى به من دخول فى جبهات أو محالفات ، أو مهادنات أو مشاركات ، حسبما توجبه المصلحة العليا للإسلام ، وللأمة وللحركة ، وفى ظل الظروف الآنية والموضعية الحاكمة . فلكل قُطر ظروفه ، ولكل مرحلة حكمها ، ولكل مجموعة قدراتها وضروراتها وملابساتها ، التى هى أدرى بها من غيرها .

والحركة هنا - مثلها كمثل الفقه وغيره من علوم الشريعة - لا تحيا وتنمو وتزدهر إلا بفكر المجدِّدين المجتهدين ، ولا تذوى وتنكمش وتعقم إلا بفكر المقَلِّدين الجامدين ، إن صح أن ما عندهم يسمى « فكراً » .

❊ ❊ ❊

● الجمود آفة خطرة :

إن الجمود آفة من آفات الفكر الحركى « المؤطر » وهو عائق من العوائق الداخلية فى الحركة الإسلامية ، كما بيَّنتُ ذلك فى كتابى « الحل الإسلامى فريضة وضرورة » [(١)] .

الجمود على شكل معين فى التنظيم ، وعلى وسائل معينة فى التربية ، وعلى صور معينة فى الدعوة ، وعلى مراحل معينة فى الوصول إلى الهدف ، وعلى

---

(١) انظر : « الحل الإسلامى » ص ٢٤٩ - ٢٥١ ط . مؤسسة الرسالة (الثامنة) .

أفكار معينة فى السياسة ... ومَن حاول أن يُغَيِّر من هذا الشكل أو تلك الوسيلة ، أو هذه الصورة أو تلك المراحل ، أو تلك الأفكار ، أو يعدِّل فيها بالزيادة والنقص ، قوبل بالرفض الشديد ، أو الاتهام والتنديد .

ولا زلتُ أؤكد أن التجديد الذى نريده لا يعنى إلغاء القديم ، بل تطويره وتحسينه وتحديثه والإضافة إليه ، وبخاصة ما يتعلق بالوسائل والأدوات والكيفيات . فهى أمور مرنة قابلة للتطوير والتحول ، والاستفادة من إمكانات العصر ، ومما عند الآخرين ، والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها .

* * *

• ما أخشاه على الحركة الإسلامية :

إن أخشى ما أخشاه على الحركة الإسلامية أن تضيق بالمفكرين الأحرار من أبنائها وأن تُغلق النوافذ فى وجه التجديد والاجتهاد ، وتقف عند لون واحد من التفكير لا يقبل وجهة نظر أخرى ، تحمل رأياً مخالفاً فى ترتيب الأهداف ، أو فى تحديد الوسائل ، أو فى تعيين المراحل ، أو فى تقويم الأحداث والمواقف ، أو فى تقدير الرجال والأشخاص ، أو فى غير ذلك ، مما يدخل فى دائرة الاجتهاد البَشرى ، الذى من شأنه أن يتطور ويتغير بتغير العوامل والمؤثرات . وقديماً قال فقهاؤنا : يجب أن تتغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد .

وعندئذ تتسرب الكفايات العقلية القادرة على التجديد والابتكار . من بين صفوف الحركة ، كما يتسرب الماء من بين الأصابع ، ولا يبقى فى النهاية إلاَّ المحافظون المقلِّدون ، الذين يحبون أن يبقى كل قديم على قِدمه ، وأن ما نعرفه خير مما لا نعرفه ، وما جربته أفضل مما لم تجربه .

ونتيجة هذا أن تُحرم الحركة من ثمرات العقول الكبيرة من أبنائها ، وأن تُصاب فى النهاية بالجمود ، أو العقم الذى أصاب الفقه والأدب فى عصور التقليد ، وأن يتقوقع هؤلاء على ذاوتهم يأساً من أى عمل مثمر للإسلام ، أو

يعملوا فرادى نافضين أيديهم من جدوى أى عمل جماعى ، أو يحاولون مع آخرين خوض تجربة جماعية أخرى لا تُدرَى عواقبها .

إن من أهم ما أضرّ بالعقل المسلم قديماً ، وأضرّ به حديثاً ، شيوع تلك المقولة التى تقول : ما ترك الأول للآخر شيئاً ! وليس فى الإمكان أبدع مما كان !

ولا ينفع العقل المسلم شىء مثل شيوع الفكرة المضادة التى تقول أبداً : كم ترك الأول للآخر ، وكم فى الإمكان أبدع مما كان ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

* * *

OBEIKAN.COM

فكر وَسَطى

ومن معالم الفكر الذى ننشده : أنه فكرى وَسَطى الوجهة والنزعة ، فهو فكر تتجلى فيه النظرة الوَسَطية المعتدلة المتكاملة للناس وللحياة ، النظرة التى تمثل المنهج الوَسَط للأمة الوَسَط ، بعيداً عن الغلو والتقصير .

● موقف الفكر الوَسَطى من قضايا كبيرة :

تتميز وَسَطية هذا الفكر فى موقفه المعتدل من قضايا كبيرة مهمة :

فهو وَسَط بين دعاة المذهبية الضيقة ، ودعاة اللا مذهبية المنفرطة .

وَسَط بين أتباع التصوف وإن انحرف وابتدع ، وأعداء التصوف وإن التزم واتبع .

وَسَط بين دعاة الانفتاح على العالَم بلا ضوابط ، ودعاة الانغلاق على النفس بلا مبرر .

وَسَط بين المحكِّمين للعقل وإن خالف النص القاطع ، والمغيبين للعقل ، ولو فى فهم النص .

وَسَط بين المقدِّسين للتراث ، وإن بدا فيه قصور البَشر ، والملغين للتراث ، وإن تجلت فيه روائع الهداية .

وَسَط بين المستغرقين فى السياسة على حساب التربية ، والمهملين للسياسية كليِّة بدعوى التربية .

وَسَط بين المستعجلين لقطف الثمرة قبل أوانها ، والغافلين عنها حتى تسقط فى أيدى غيرهم بعد نضجها .

وَسَط بين المستغرقين فى الحاضر غائبين عن المستقبل ، والمبالغين فى التنبؤ بالمستقبل كأنه كتاب يقرؤونه .

وَسَط بين المقدِّسين للأشكال التنظيمية كأنها أوثان تُعبد ، والمتحلِّلين من أى عمل منظَّم كأنهم حبات عقد منفرط .

وَسَط بين الغلاة فى طاعة الفرد للشيخ والقائد كأنه الميت بين يدى الغاسل ، والمسرفين فى تحرره كأنه ليس عضواً فى جماعة .

وَسَط بين الدعاة إلى العالَمية دون رعاية للظروف والملابسات المحلية ، والدعاة إلى الإقليمية الضيقة دون أدنى ارتباط بالحركة العالَمية .

وَسَط بين المسرفين فى التفاؤل متجاهلين العوائق والمخاطر ، والمسرفين فى التشاؤم فلا يرون إلا الظلام ، ولا يرقبون للظلام فجراً .

وَسَط بين المغالين فى التحريم كأنه لا يوجد فى الدنيا شىء حلال ، والمبالغين فى التحليل كأنه لا يوجد فى الدين شىء حرام .

هذه هى الوَسَطية التى يتبناها هذا الفكر ، وإن كان الغالب على مجتمعاتنا اليوم السقوط بين طرفى الإفراط والتفريط ، إلا مَن رَحِمَ ربك ، وقليل ما هم .

* * *

• انحسار الوَسَطية لدى بعض الإسلاميين وفى بعض الفترات :

إن بعض الإسلاميين قد انحصرت عنده الألوان الكثيرة فى لونين اثنين لا ثالث لهما ، هما : الأبيض والأسود . وليس بينهما ألوان أخرى ، مما يعرفه الناس من الألوان الأصلية والفرعية ، التى لكل منها درجات لا تكاد تُحصر .

وبعض هؤلاء يكاد يحصر الألوان كلها فى واحد ، ويجعل الأصل فى الألوان كلها وفى الحياة كلها هو « السواد » تبعاً للمنظار الذى يرى فيه الناس والأشياء .

وبهذه النظرة السوداء المتشائمة حدَّد أجوبة جاهزة لكل شىء ، يُطلقها كالقنبلة ولا يبالى ما أصابت من الحياة والأحياء .

فالمجتمع جاهلى كله ،،.

والحياة إثم كلها ،،،

والناس كلهم كفار أو منافقون ،،،

والعالَم كله وحوش ،،،

والدنيا كلها شر ،،،

وكل ما يمارسه الناس فى حياتهم المعاصرة حرام فى حرام ،،،

فالغِناء كله فى نظره حرام ،،،

والموسيقى كلها حرام ،،،

والتصوير كله حرام ،،،

والتمثيل كله حرام ،،،

والمسرح حرام ،،،

والفنون كلها حرام فى حرام ،،،

هذا مع أن سَلَف الأمة كانوا يتحرجون أشد الحَرَج من إطلاق كلمة « الحرام » إلا على ما عُلِمَ تحريمه جزماً ، ولهذا نزل فى ذم الخمر آيتان فى سورة البقرة : ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ (١) ، وفى سورة النساء : ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ ﴾ (٢) ، ومع هذا ظل بعض الصحابة يشربها ، وظل بعضهم يقول : اللّهم بَيِّن لنا فى الخمر بياناً شافياً ، حتى نزلت آية المائدة الحاسمة : ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣) .

يجب أن نعترف أن الفترة الماضية - وخصوصاً فى الخمسينات والستينات - كانت مجالاً خصباً لانتشار نوع من الأفكار السوداء فى الساحة الإسلامية .

---

(١) البقرة : ٢١٩ (٢) النساء : ٤٣ (٣) المائدة : ٩٠ .

فقد غلب الفكر الذى ينزع إلى الرفض والتشاؤم والاتهام وسوء الظن بالآخرين على اختلاف نزعاتهم واتجاهاتهم ، حتى المسلمين منهم .

أجل ، راجت فكرة التفسيق والتبديع [١] ، بل التكفير .. وساعد على ذلك الجو الخانق الذى كانت تعيشه الحركة الإسلامية ورجالها ودعاتها ، الذين نُصِبَت لهم المشانق جهرة ، أو قُتِلوا بأدوات التعذيب خفية ، أو صُبَّتْ عليهم ألوان التنكيل والتشريد من كل جهة . فى حين فُتِحَت الأبواب أمام الشيوعيين والعِلمانيين وكل خصوم الإسلام .

فى هذه المرحلة ظهرت كتب الشهيد سيد قطب التى تمثل المرحلة الأخيرة من تفكيره ، والتى تنضح بتكفير المجتمع ، وتأجيل الدعوة إلى النظام الإسلامى ، والسخرية بفكرة تجديد الفقه وتطويره ، وإحياء الاجتهاد ، وتدعو إلى العزلة الشعورية عن المجتمع ، وقطع العلاقة مع الآخرين ، وإعلان الجهاد الهجومى على الناس كافة ، والاستخفاف بدعاة التسامح والمرونة ، ورميهم بالسذاجة والهزيمة النفسية أمام الحضارة الغربية .

يتجلى ذلك أوضح ما يكون فى تفسير الشهيد « فى ظلال القرآن » فى طبعته الثانية وفى « معالم فى الطريق » ومعظمه مقتبس من « الظلال » وفى « الإسلام ومشكلات الحضارة » وغيرها . وهذه الكتب كان لها فضلها وتأثيرها الإيجابى الكبير ، كما كان لها تأثيرها السلبى .

كما ظهرت كتب المدعو له بالرحمة والمغفرة الشيخ سعيد حوّى ، وهى تتبنى نفس الفكر ، وتسير فى هذا الخط ذاته .

وفى نفس الوقت راج فقه من أسميهم بـ « الظاهرية الجدد » الذين ينسبون أنفسهم أو ينسبهم الناس إلى مدرسة ابن تيمية وتلامذته ، وهم كانوا أبعد الناس عن « الحرفية » والجمود على « الصورية والشكلية » التى يستقتل هؤلاء فى التمسك بها .

---

(١) يراد بالتفسيق والتبديع : وصف الآخرين بالفسق والبدعة .

وبهذا غلب على الفكر الإسلامى الإعنات والتصلب ، وتقهقرت روح الوَسَطية السمحة الميسرة إلى حين ، وأعتقد أن الحركة لا بد لها من التغلب على فكر المحنة ، أو فكر الأزمة ، لتنتقل إلى الفكر الوَسَطى المعتدل ، المعبِّر عن وَسَطية الأمة المسلمة ، ووَسَطية المنهج الإسلامى : الذى أراد اللّه به اليُسر ، ولم يرد به العُسر .

* * *

• الوَسَطية ملازمة للتيسير :

إن الوسطية فى رأيى ملازمة للتيسير ، فهو وَسَط بين التزمت والتنطع من ناحية ، والتسيب والتحلل من ناحية أخرى .

• على الحركة أن تتبنى خط التيسير :

وينبغى للحركة الإسلامية أن تتبنى - فى مجال الآراء الفقهية المتعلقة بالمجتمع وسياسته واقتصاده وقوانينه ومعاملاته وعلاقاته الدولية - خط التيسير ، لا التعسير ، والتسهيل لا التعقيد والتشديد .

وذلك لجملة أسباب :

أولها : أن الشريعة مبناها على اليُسر ورفع الحَرَج والتخفيف والرحمة والسماحة ، كما دلَّت على ذلك النصوص الغزيرة والوفيرة .

يقول تعالى فى آية الصيام : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ ﴾ (١) . وفى ختام آية الطهارة : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ حَرَجٍ ﴾ (٢) وعقب أحكام النكاح والمحرَّمات : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾ (٣) وفى أحكام القصاص والعفو فيه : ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة : ١٨٥
(٢) المائدة : ٦
(٣) النساء : ٢٨
(٤) البقرة : ١٧٨

OBEIKAN.COM

والرسول الكريم يقول : « يسِّروا ولا تُعَسِّروا » (متفق عليه) . ويقول : « إنما بعثتم ميسِّرين ، ولم تبعثوا معسِّرين » (رواه الترمذى) .

ولما أصابت عمرو بن العاص جنابة فى ليلة باردة ، فصلى دون اغتسال ، شكاه مَن معه إلى النبى ﷺ فقال : ذكرتُ قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ [١] فتبسم النبى ﷺ على حين أنكر أشد الإنكار على جماعة أفتوا مجروحاً أصابته جنابة بضرورة الاغتسال ، فاغتسل فمات بسبب فتواهم المعنتة ، فقال : « قتلوه ، قتلهم الله ! هلاَّ سألوا إذا لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العى السؤال ، إنما كان يكفيه أن يربط على جرحه ويتيمم » [٢] .

ثانياً : أن الناس فى عصرنا أحوج ما يكونون إلى التيسير عليهم ، والتخفيف عنهم ، رفقاً بهم ومراعاة لحالهم ، حيث ضعفت الهمم ، وغلب على الناس التكاسل عن الخيرات ، وكثرت فيهم العوائق عن الخير ، والمرغبات فى الشر .

فالأولى أن يفتَوْا بالرُخص أكثر من العزائم ، وبالتسهيل أكثر من التشديد . كما كان يفعل النبى ﷺ مع حدثاء العهد بالإسلام ، ومع الأعراب من أهل البادية ، فهو يقبل ممن أقسم ألا يزيد على الفرائض شيئاً من السُنَن أو التطوع ويقول : « أفلح إن صدق » أو « دخل الجنة إن صدق » أو « مَن أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » .

وكان ذلك رفقاً به ، ومراعاة لحاله .

---

(١) النساء : ٢٩

(٢) رواه أبو داود عن جابر ، ورواه أحمد وأبو داود والحاكم عن ابن عباس ، كما فى صحيح الجامع الصغير (٤٣٦٣ ، ٤٣٦٤)

ثالثاً : إن الفرد بوسعه أن يشدِّد على نفسه إن شاء ، ويأخذها بالعزائم إن كان من أهلها ، مع أن الأولى هو الاعتدال والتوازن كما فى الحديث : « إن اللّه يحب أن تُوتَى رُخصه كما يكره أن تُوتَى معصيته » (١) .

ولكن لا ينبغى للفقيه أن يُشدِّد على الناس فى الأمور التى تهم جمهورهم ، بل يراعى أن فيهم الضعيف والكبير وصاحب العُذر ، كما جاء فى الإمامَة فى الصلاة : « مَن أمَّ الناس فليخفف ، فإن من ورائه الكبير والمريض وذا الحاجة » .

والصلاة رمز لشؤون الحياة المختلفة .

ولهذا لا يسع فقهاء الحركة الإسلامية أن يتبنوا الآراء المشدِّدة التى تضيِّق ولا تُوَسِّع ، وتجنح إلى التحريم أكثر من التحليل ، وخصوصاً في القضايا المتعلقة بالمرأة والأسرة واللهو والفنون ونحوها .

ومثل ذلك الآراء المتعلقة بالمعاملات ، فالأصل فيها الإباحة والإذن لا المنع والتحريم .

وكذلك قوانين العقوبات ، ينبغى الأخذ بالأقوال الميسرة فيها ، كالقول الذى يرى أن التوبة تُسقط الحد ، وأن عقوبة الخمر عقوبة تعزيرية (٢) ... وهكذا

وأود أن يكون شعارنا فى هذه المرحلة قول الإمام سفيان الثورى : « إنما الفقه الرُخصة من ثقة ، أما التشديد فيحسنه كل أحد » !

* * *

---

(١) رواه أحمد وابن حبان والبيهقى فى الشُعَب عن ابن عمر ، وهو فى صحيح الجامع الصغير (١٨٨٦) .

(٢) انظر فى ذلك : رسالتنا « عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسـلامية » . العامل الخامس : تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال .

فكر مستقبلى

من خصائص الفكر الذى نريده للحركة الإسلامية : أن يكون فكراً مستقبلياً يرنو دائماً إلى الغد ، ولا ينحصر فى الحاضر . وليس غريباً أن تهتم الحركة الإسلامية بالمستقبل ، فهذا هو منطق الإسلام فى قرآنه وسُنَّة نبيه ﷺ .

• القرآن الكريم والمستقبل :

فالمتدبر للقرآن الكريم يجده منذ العهد المكى يوجه أنظار المسلمين إلى الغد المأمول ، والمستقبل المرتجى ، ويبين لهم أن الفلك يتحرك ، والعالم يتغير ، والأحوال تتحول ، فالمهزوم قد ينتصر ، والمنتصر قد يُهزم ، والضعيف قد يقوى ، والدوائر تدور ، سواء أكان ذلك على المستوى المحلى أم العالَمى .

وعلى المسلمين أن يهيئوا أنفسهم ، ويرتبوا بيتهم لما يتمخض عنه الغد القريب أو البعيد ، فكل آتٍ قريب .

نقرأ سورة « القمر » المكية فنجد فيها قول اللّه تعالى عن المشركين ، وهم أولو القوة والشوكة ، والعدد والعُدَّة : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (١) .

ذكر ابن كثير فى تفسيره عن ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ قال عمر : أىُّ جمع يُهْزَم ؟ أىُّ جمع يُغْلَب ؟ فلما كان يوم بدر رأيتُ رسول اللّه ﷺ يثب فى الدرع ، وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ (٢) .

---

(١) القمر : ٤٥ - ٤٦

(٢) تفسيرابن كثير جـ ٤ ص ٢٦٦ ط . الحلبى .

OBEIKAN.COM

وروى البخارى عن عائشة قالت : نزل على محمد ﷺ بمكة ، وإنى لجارية ألعب : ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (١) .

فكان المقصود بهذه الآية وأمثالها تهيئة الذهنية المسلمة ، والنفسية المسلمة ، للتغير الحتمى ، والغد المرتقَب .

وعلى المستوى العالَمى نجد آيات الكتاب العزيز تتحدث عن ذلك الصراع التاريخى بين الدولتين العظميين : فارس والروم - وقد كان صراعاً اهتم له الفريقان فى مكة : المسلمون والمشركون - فتبشر الآيات الجماعة المؤمنة بأن المستقبل للروم من أهل الكتاب ، على الفُرس المجوس عبَّاد النار ، وأنهم - وإن غلبوا اليوم - سيُغلبون فى بضع سنين ، وفى هذا تقول السورة جازمة : ﴿ آلَمَ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

وهذه الآيات الكريمة من كتاب اللّه تعالى تدلنا على أمرين :

١ - مدى وعى المجموعة المسلمة - على قلتها وضعفها المادى - بأحداث العالَم الكبرى ، وصراع العمالقة من حولها ، وأثره عليها إيجاباً وسلباً .

٢ - تسجيل القرآن لهذه الأحداث ، وتوجيه النظر إلى عوامل التغير ، والانتقال من الواقع إلى المتوقَع فى ضوء السُنَن .

وفى سورة المزمل المكية ، نقرأ الآية الأخيرة من السورة التى تتضمن تخفيف اللّه عن نبيه ومَن معه فى قيام اللّيل وقراءة القرآن ، لما ينتظرهم من مهام جسيمة فى المستقبل ، فسيواجهون أعداء يقاتلونهم ويصدونهم عن سبيل اللّه . فليوفروا بعض قوّتهم لهذا اللّقاء المفروض عليهم .

---

(١) المرجع نفسه .　　　(٢) الروم : ١ - ٥

OBEIKAN.COM

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ، وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ، عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ (١) .

* * *

● الرسول والمستقبل :

والقارىء المتأمل لسيرة رسول الله ﷺ يتبين له أنه لم يكن غافلاً عن مستقبل دعوته ، بل كان يفكر فيه ، ويخطط له ، فى حدود ما هيأ الله له من فرص ، وما آتاه من أدوات .

ويكفى أن نقرأ عن جهده ونشاطه ﷺ فى مواسم الحج التى تجمع ممثلين من جميع قبائل العرب ، وكيف كان عليه الصلاة والسلام يعرض دعوته عليهم ، ويطلب نُصرتهم ، ويعدهم بوراثة ممالك كِسرى وقيصر ، ليعلم إلى أى أفق كان يرنو بصره ﷺ .

وكان الرسول الكريم مؤمناً بمبدأين أساسيين :

الأول : أن هذا الواقع لا بد أن يزول ، لأنه يحمل عوامل زواله ، وأن البديل له هو الإسلام ، وأن ليل الجاهلية الحالك والجاثم سيعقبه فجر صادق ، وما على المؤمنين إلا أن يصمدوا ويصبروا ولا يستعجلوا الثمرة قبل إبّانها .

لما اشتد الأذى بالصحابة فى مكة ، وخصوصاً المستضعَفين منهم ، جاء خباب ابن الأرت إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه ويستنجد به ، وهو متوسد رداءه فى

---

(١) المزمل : ٢٠ .

OBEIKAN.COM

ظل الكعبة . فقال بلسانه ولسان المعَذّبين من أمثاله : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له فى الأرض فيُجعل فيها ، ثم يُؤتَى بالمنشار فيُوضع على رأسه فيُجعل نصفين ! ويمشّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، ما يصده ذلك عن دينه ! واللّه ليتِمَنَّ اللّه هذا الأمر حتى يسير الركب من صنعاء إلى حضرموت ، فلا يخاف إلا اللّه والذئب علي غنمه ، ولكنكم تستعجلون » (١) .

الثانى : أن هذا المستقبل المنشود إنما يتحقق وفق سُنَن اللّه فى رعاية الأسباب ، وإعداد المستطاع من العدة ، وإزاحة العوائق من الطريق ، وترك ما عدا ذلك للإرادة الإلهية ، فما يعجز عنه البَشر لا تعجز عنه القدرة المطلقة .

تجد ذلك واضحاً كل الوضوح فى الهجرة إلى المدينة .

فقد اختار الرسول الكريم مهجره فى جزيرة العرب لا خارجها - كالحبشة مثلاً - فهذا هو الموقع المناسب ، واختار أنصاره من العرب الخُلّص ، الذين بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وذُرِّياتهم . وقدَّم هجرة أصحابه على هجرته ، ليكون ذلك أمكن لهم ، وأليق بمقدمه بعدهم .

وهيأ للهجرة بعد إذن اللّه له ، الرواحل والرفيق والدليل ، والغار الذى يتوارى فيه حتى يهدأ الطلب ، ويفتر الحماس .

وأحاط ذلك كله بما يمكن للبشر من أخذ الحذر والكتمان ، وأسباب الاحتياط .

وترك للإرادة الإلٰهية بعد ذلك ما لا حيلة له فيه ، ولذا لم يخامره ﷺ أدنى شك فى أن اللّه ناصره .

---

(١) رواه البخارى .

وعندما قال أبو بكر له ، وهما فى الغار : يا رسول اللّه ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ! قال : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين اللّه ثالثهما » ؟ . ونزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِىَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

* * *

(١) التوبة : ٤٠ .

OBEIKAN.COM